

الْغُلُو

عناصر الموضوع

٨	مفهوم الغلو
٩	الغلو في الاستعمال القرآني
١٠	الأنفاذ ذات الصلة
١٢	أضرار الغلو
١٦	أنواع الغلو
٢٠	أسباب الغلو
٢٥	مظاهر الغلو
٣٢	علاج الغلو

مفهوم الغلو

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (غلو) تدل على ارتفاع ومجاوزة قدر. يقال: غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوًا، إذا جاوز حده^(١).
ويقال: «غلا في الأمر والقول والدين غلوًا: جاوز القدر»^(٢).
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والغلو في الدين)^(٣)، أي: التشدد فيه ومجاوزة الحد، والحديث الآخر: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)^(٤).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه بعض العلماء بأنه: «مجاوزة الحد، بأن يزداد في الشيء، في حمده أو ذمه على ما يستحق»^(٥).
وعرفه الحافظ ابن حجر بأنه: «المبالغة في الشيء، والتشديد فيه بتجاوز الحد»^(٦).

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق باب أي الرقاب أفضل، ١/١٤٤، رقم ٢٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، ١/٨٩، رقم ٨٤.
- (٢) كتاب الأفعال، ابن القطاع ٢/٤٤٤.
- (٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب قدر حصي الرمي، رقم ٢٩٣٠، ٢/١٠٠٨.
- وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/٥٢٢، رقم ٢٦٨٠.
- (٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/٣٤٦، رقم ١٣٠٥٢.
- وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/٤٤٧، رقم ٢٢٤٦.
- (٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/٢٨٩.
- (٦) فتح الباري، ابن حجر ١٣/٢٧٨.

انغلو في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غلو) في القرآن الكريم مرتين فقط^(١).
والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتَّبِ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]

وجاء الغلو في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو الإفراط ومجاوزة الحد^(٢).
ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ آلُكَتَّبِ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]
أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق^(٣).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٠٤.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٠)، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ١٥٩).

الألفاظ ذات الصلة

١ الطغيان:

الطغيان لغة:

كل شيء يجاوز القدر فقد طغى، مثل ما طغى الماء على قوم نوح، وكما طغت الصبيحة على ثمود. والطاغية: الجبار العنيد^(١).

الطغيان اصطلاحًا:

تجاوز الحد في العصيان^(٢).

الصلة بين الطغيان والغلو:

ومن خلال النصوص السابقة نتيين أن الطغيان هو مجاوزة القدر والحد الواجب؛ وهو بهذا لا يكاد يفترق عن الغلو إلا بما يصاحبه - غالبًا - من الاستعلاء والتكبر والتجبر كتكبر وطغيان فرعون. أما الغلو فلا يلزم معه تكبر أو استعلاء، فكثيرًا ما يغالي في دين الله تعالى قوم ضعاف من الفقراء أو العامة ونحوهم.

٢ البغي:

البغي لغة:

هو الظلم وقصد الفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ بَاغٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. «أي غير باغ على المسلمين، مفارق لجماعتهم، ولا عاد عليهم بسيفه. ويقال: غير عاد في الأكل حتى يشبع ويتزود»^(٣).

البغي اصطلاحًا:

البغي: طلب الاستعلاء بغير حق^(٤).

الصلة بين البغي والغلو:

البغي هو قصد الفساد بإجماع أهل اللغة كما ذكر الزجاج، وكأن الذي يفرقه عن الاعتداء أن الاعتداء فيه قصد المجاوزة وإن لم ييغ فسادا، أما البغي فهو قصد الفساد ابتداء.

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤ / ٤٣٥.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٢٠.

(٣) غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٦٥.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٨١.

الوسطية لغة:

ما بين طرفي الشيء أو هو النصف، يقال: جلس فلان وسط القوم، أي صار في وسطهم. وشيء بين الجيد والردىء، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، والاعتدال في النفقة: وسط بين الإسراف والتقتير أو البخل، والتوسط بين الناس: الوساطة^(١).

الوسطية اصطلاحاً:

الوسطية تعني الاعتدال والتوازن، ويعنى بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بدون إفراط أو تفريط بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرده الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطنى على مقابله ويحييف عليه، وهذه الوسطية هي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة^(٢).

الصلة بين الوسطية والغلو:

الوسطية تعني الاعتدال بين الغلو والتساهل، والغلو تمسك بالطرف المتشدد.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٦٧، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٥٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية، ص ١٥٦.

أضرار الغلو

للغلو في الدين أضرار كثيرة بينها القرآن الكريم وهذه الأضرار يعود أثرها على الخلق، كما تعود على الدين نفسه بالتشويه والنقص، وهي على نوعين:

أولاً: أضرار دينية:

الغلو ضلال عن الحق، وقول على الله بغير علم، وابتداع في الدين، وتشويه لصورته، وتغيير للناس منه.

قال تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَهُمَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فبين سبحانه في هذه الآية أن هذا الغلو من أهل الكتاب إنما هو ضلال وقول بغير الحق وابتداع لا ينطلق من شرع الله؛ وإنما ينطلق من اتباع الهوى والتقليد بغير بينة، وتكرار مادة الضلال فيه ثلاث مرات يؤكد أن الغلو إمعان في الضلال.

قال الطبري: ﴿لَا تَقْلُوا فِي

دِينِكُمْ﴾، يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل^(١).

فتبين بذلك أن الغلو تجاوز الحق إلى الباطل، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

فالمغالي متزيد على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه يستحسن شرعاً لم يأت به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فكأنه يعتقد نقصان الشرع فراح يستدرك عليه، أو يعتقد تمامه وكماله فيلزمه اعتقاد تقصير محمد صلى الله عليه وسلم في التبليغ أو كتمان ما أمر بتبليغه؛ ومن ثم «قال ابن الماجشون سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً. وقال الشافعي رحمه الله: من استحسّن -يعني: بدعة- فقد شرع. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم وترك

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٨٧.

للغلو أضرار كثيرة على العباد؛ وهو من ضروب الفساد التي نهى الله تعالى عنها في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الفصل: ٧٧].

وهذه الأضرار؛ منها أضرار مجتمعية تعود على المجتمع بالخراب والدمار ويصطلي الناس بنارها، ومنها أضرار عالمية تعود على الناس كافة بصددهم عن سبيل الله تعالى، ومنعم من الدخول في رحمة الله وفضله بصددهم عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله تعالى رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومن ثم يمكننا أن نقسم هذه الأضرار التي تعود على البشر من جراء الغلو إلى:

١. أضرار مجتمعية محلية.

فمن هذه الأضرار المجتمعية المحلية:

• تفريق الأمة، وإضعاف قوتها.

ذم القرآن التفرق ونهى عنه وبين سوء عاقبته؛ قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومما لا شك فيه أن اعتقاد طائفة من الناس أنهم قد اختصوا بفهم زائد في الدين

البدع، وكل بدعة فهي ضلالة^(١).

«وتدلنا هذه الآية أيضًا أن ضلالهم هذا كان آتياً من غلوهم في الدين. وها نحن نرى بعد ذلك كيف يفصل القرآن هذا الإجمال:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾
﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿[المائدة: ٧٢].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَحِدٌ﴾
﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْخُذُونِي وَأَمْنِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ٧٣-١١٦].

﴿مَا كَانَ لِلشِّرْكِ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالشُّبُهَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾
﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِكَةَ وَالنِّيْسَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].^(٢)

ثانياً: أضرار على الخلق:

(١) السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، الشقيري ص ٦.

(٢) المصطلحات الأربعة في القرآن، محمد عاصم الحداد ص ٤٨.

فوق ما عليه السواد الأعظم من أهل العلم وأولي الأمر منهم ممن تجب طاعتهم على عامة الأمة فإن ذلك سيؤدي بلا شك إلى تفريق الأمة وتمزيقها بين من يتبع هؤلاء الخارجين على أهل العلم وأولي الأمر، وبين من يتمسك بما عليه سواد الأمة، وهذا التفرق والتشردم مما يضعف قوة الأمة ويذهب قوتها؛ كما هو واضح من نص الآية السابقة.

فبين الله تعالى أن عاقبة التفرق والتنازع الفشل وذهاب الريح وضعف القوى؛ «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم»، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدثكم وما كنتم فيه من الإقبال^(١).

❁ إيقاع الناس في الحرج.

يحدث هذا عندما يدعي طائفة من الناس - هم المغالون في الدين - أن ما هم عليه من الغلو هو الدين الحق، وهو - بلا شك - ليس في استطاعة كل واحد من الناس - هذا على فرض كونه في أصله من الحق - فما بالكم إذا كان ذلك فهما مغلوطا في أغلبه

يلبس فيه الحق بالباطل لموافقة الأهواء المريضة؛ فحيثئذ قد يشعر غير القادرين على متابعة هؤلاء الغلاة - وهم جمهور الأمة وسوادها الأعظم - بالخرج ظنا منهم أنهم واقعون في التقصير، والحق أن الغلاة هم الخارجون على الشرع، وهم أولى بالخرج وأحق به ولا حرج على من سلك سبيل القصد والتوسط والاعتدال.

وهؤلاء المغالون يزعمون أنهم على الحق ويدعون الناس لاتباع ما هم عليه من الغلو والابتداع، كما حكى الله تعالى عن اليهود والنصارى؛ حيث لم يكتفوا بتحريف ملة إبراهيم بل يزعمون أنهم هم وحدهم على الهدى ويدعون الناس للدخول في ملتهم حتى يحصلوا الهدى على زعمهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَمِعْ لِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لِلَّهِ مُسْلِمُونَ ١٢٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهَتُوا وَإِنْ لَوْلَا فَتَنَّاهُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ١٢٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لِلَّهِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧٢/٤.

قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: (إنما أئالفهم). فأقبل رجلٌ غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناثئ الجبين، كث اللحية مخلوقٌ، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: (من يقطع الله إذا عصيت؟ أيا منني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني) فسأله رجلٌ قتله، - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولى قال: (إن من ضئضى هذا، أو: في عقب هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)^(١).

❖ عدم التوقير والطاعة لمن تلزم طاعتهم. فأمثال هؤلاء الغلاة الذين لا يوقرون كبيراً، ولا يطيعون إماماً هم الذين (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان)، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويشيعون الفوضى والفساد في الأرض، لا يرجعون إلى إمام عدل، ولا يوقرون عالماً ولا أحداً من أولي الأمر.

وماذا يرجوا من انصياعهم لإمام أو توقير لعالم وقد انتقصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجابهوه بما يؤذيه وما لا يليق **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هوداً)، ٤/١٣٧، رقم ٣٣٤٤.

﴿غُلُوبُونَ﴾ (١٣٦) **أَمَرْتُمْ لَوْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَثَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** (البقرة: ١٣٥-١٤٠).

استحلال الدماء والأموال، وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار:

يترتب على الغلو آثار عديدة منها استحلال دماء الناس وأموالهم بناء على اعتقاد كفرهم ممن يغالي بتكفير المسلمين بالمعاصي كما هي عقيدة فرق الخوارج والمكفرة قديماً وحديثاً.

وإذا كان الخوارج المعاصرون يغالون فيعتقدون أنهم أفضل وأعلم وأفهم من أهل العلم في زمانهم - فيسارعون بتخطئتهم بل وتكفيرهم في إنكارهم عليهم اعتقادهم الباطل بتكفير عصاة المسلمين مما ينتج عنه استحلال دمائهم وأموالهم - فلقد سبق أسلافهم فخطئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتهموه بالعصيان وأمروه بتقوى الله. فعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال:

(بعث عليّ رضي الله عنه، إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهبية فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش، والأنصار،

[التوبة: ٦١].

أنواع الغلو

الغلو في الدين يأخذ أشكالا متعددة فهناك الغلو في الاعتقاد، والغلو في العبادة، والغلو في السلوك، والاعتقادي منه الكلي والجزئي.

أولاً: الغلو الاعتقادي:

فالمراد بالغلو الاعتقادي الكلي ما يتعلق بكليات الشريعة وأصولها كالغلو في الأولياء الصالحين بما يصل إلى الكفر كاعتقاد معرفتهم الغيب، أو قدرتهم على ما لا يقدر عليه غير الله كإغاثة المضطر وقضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يعتقده الجهلة والمبتدعة، والغلو في عقيدة الولاء والبراء بالبراءة من العاصين، والغلو بتكفير العصاة، وهذا النوع هو أشد أنواع الغلو.

وقد ذكر الله ما كان من المشركين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من غلو في الأولياء والأنبياء والصالحين - شابههم فيه بعض أهل الغلو في زماننا؛ فقال سبحانه:

﴿وَيَصْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتْنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُوهُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فقول هؤلاء المشركين كقول غيرهم من غلاة أهل زماننا «فيمن يتخذونهم وسطاء

٢. أضرار إنسانية عالمية.

تتخطى أضرار الغلو وآفاته الصعيد المحلي إلى الصعيد العالمي؛ فصاحب الغلو لا يقتصر غلوه على بني وطنه؛ بل يتعداه بالفساد إلى الناس جميعاً؛ لأجل ذلك تراه يعيش في الأرض فساداً، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

حيث الكراهية الشديدة للآخر المخالف في العقيدة كراهية تخرج عن حد الكراهية لأجل الكفر؛ بل تتعدى ذلك إلى كراهية الخلق والرغبة في التعجيل بهم إلى النار عن طريق القتل وإزهاق الأرواح، دون تأن بهم لهدايتهم أو لإتاحة الفرصة لهم لرؤية سماحة الإسلام وصورته الغراء التي تغري باعتناقه والدخول فيه أو حسن الظن بأهله. كل ذلك يشوه صورة الإسلام عند من لا يعرفه من الآخرين، ويصدهم عن الإيمان به، ويحرمهم من الدخول في رحمة الله: الرحمة المهداة للعالمين؛ وذلك بسبب ما يقوم به ذلك المغالي في بلاد غير المسلمين من تخريب أو تدمير بسبب كفرهم ظناً منه أن الحرب إنما شرعت لأجل قتل الناس لا لأجل دعوتهم وهدايتهم بصدد صناديد الكفر الذين يصدون الناس عن دين الله تعالى، ويمنعون وصول الدعوة والهداية إليهم.

كما تصير القاعدة الكلية معارضةً أيضًا^(٣). فمن ذلك ما كان يفعله أهل الجاهلية من طوافهم بالبيت عراة، وإدخال الصغير والتصفيق في طوافهم بالبيت، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي تفسيرها يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يحرم ما تحرمونه، بل أحل ذلك لعباده المؤمنين وطيبه لهم، وإنما حرم ربي القبائح من الأشياء وهي ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فكان علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، منها فكان سرًا في خفاء»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصغير، والتصدية: التصفيق. قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون»^(٥).

(٣) الاعتصام، الشاطبي ٧١٢/٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ٤٠٢/١٢.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/٢٩١.

بينهم وبين الخالق: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُمْ عَنْدهُ اللَّهُ﴾^(١).

أما الاعتقادي فهو ما يخشى فيه من فساد الاعتقاد كالغلو في الأولياء الصالحين بما لا يصل إلى الكفر كاعتقاد وجوب شد الرحال لزيارتهم مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم^(٢)، ونحو ذلك.

ومن الغلو العقدي: ما حكاه القرآن الكريم من غلو اليهود والنصارى، وسبقت الإشارة إليه في شواهد الغلو في مواضع عديدة.

ثانيًا: الغلو التعبدية:

وهو الغلو بأحكام الشريعة العملية مثل العبادات بمختلف أشكالها القولية والفعلية، ولا شك أن هذا النوع أقل خطرًا، لكنه مدخلٌ بعد ذلك للنوع الأول «ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/٢٨٠.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ٢/٦٠، ١١٨٩: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى).

ثالثاً: الغلو السلوكي:

فمن ذلك الغلو بالتشدد في معاملة الناس؛ بحيث لا يصبر على أخطائهم وزلاتهم، ولا يقبل أعتذارهم، ولا يقبل عثرتهم، ولا يرضى منهم إلا بمثالية واستقامة تامة لا تكون إلا في النبيين والصديقين.

والناظر في كتاب الله تعالى يجد أن الله تعالى قد أمر بالتوسط والاعتدال في كل شيء؛ وهذا هو المفهوم من إطلاق الوصف بالوسطية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمر تعالى بالاعتدال في معاملة الناس فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

«قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم، وقال: أمر بذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم في المشركين»^(١).

وأمر بالاعتدال في الإنفاق فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [٣١] إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [٣٠] [الإسراء: ٢٩-٣٠].

وقال في صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/٣٢٩.

ذَلِكَ قَوْمًا ﴿١٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

فلا اعتدال والتوسط والقيام بالحق والقسط - إن لم يكن العفو والصفح والإحسان - مطلوب في كل شيء لا سيما في معاملة المرء لإخوانه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَدَكَّيْزٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وادعاء النسخ في مثل هذه الآيات لا ينافي العمل بها في سياقات مشابهة لما نزلت فيه من حيث حال الداعين والمدعوين والظروف المحيطة بالدعوة.

وقال تعالى: ﴿وَحَرِّزُوا سَبْتَكُمْ سَبْتَهُمْ يَنْتَلِهَاهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٠] وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ [١١] إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٢] وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ

عَزَمِ الْأُمُورَ ﴿٤٣﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

وليس ثمة أفضل من طريقة القرآن في بيان العدل والتوسط والإحسان في معاملة الناس؛ فقد ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: تقتضي الإصلاح والعفو عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيئ على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته،

فالزيادة ظلم.

﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديبا يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَعَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحفظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الأبواب والبصائر.

أسباب الغلو

أولاً: أسباب ذاتية:

للغلو أسباب ذاتية ترجع إلى الغالي نفسه منها:

١. اتباع الهوي.

قال سبحانه في آية المائدة: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِّنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

«والغلو نقيض التقصير. ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير. وقوله غير الحق صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي غلواً باطلاً، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيد، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه -أي: عيسى عليه السلام- إلى الزنا. وإلى أنه كذاب، والنصارى ادعوا فيه الإلهية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِّنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [٧٧]. الأهواء

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»^(١).

وهذا كما بينا مع جميع الناس فقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وإذا كان المرء مأموراً بالعفو والصفح والإحسان مع جميع الخلق فمع إخوانه من باب أولى.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٠.

تَتَّبِعُوا ﴿٢﴾: لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء ﴿٢﴾؛ ذلك أن الغلو اتباع للهوى.

٢. اتباع خطوات الشيطان.

لا شك أن أهم أسباب الغلو بجميع أنواعه هو اتباع الشيطان؛ فهو الذي يزين الباطل لاتباعه، وهو الذي يأمر الناس بالسوء والفحشاء والضلال في العقيدة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

فقد أخبر ربنا سبحانه أن من أهم أسباب الغلو اتباع الشيطان فهو الذي يتدرج بالمرء خطوة خطوة نحو الضلال حتى يوقعه في الكفر بأن يقول على الله ما لا يعلم؛ فينسب له سبحانه الولد والشريك ويصفه بما لا يليق به مما تنزه عنه ربنا سبحانه وتعالى جده.

قال الرازي: «احذر أن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان، وزجر المكلف بهذا الكلام عن تخطي الحلال إلى الشبه كما زجره عن تخطيه إلى الحرام لأن الشيطان إنما يلقي إلى المرء ما يجري مجرى الشبهة

(٢) الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي ٤٢٥/٦.

هاهنا: المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة. قال الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى﴾ [طه: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الْهَوَىٰ هُوَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر. لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. وقال بعضهم: الهوى إله يعبد من دون الله. وقيل: سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار، وقال رجل لا بن عباس: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباس: كل هوى ضلالة^(١).

فلاحظ أن الله تعالى ربط بين الغلو واتباع الهوى فقال: ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ فكان الجملة الثانية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ قد وقعت بمثابة عطف البيان من الجملة الأولى ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ «جملة

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤١١/١٢.

فيزين بذلك ما لا يحل له فزجر الله تعالى عن ذلك، ثم بين العلة في هذا: التحذير، وهو كونه عدوا مبنيا أي متظاهراً بالعداوة، وذلك لأن الشيطان التزم أموراً سبعة في العداوة.

أربعة منها في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّٰلَتُهُمْ وَلَا مَنِيْنُهُمْ وَلَا مَرْئِيَّتُهُمْ فَلْيَتَّكِنْ ءَاذَانَ الْأَنْفُسِ وَلَا مَرْئِيَّتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

وثلاثة منها في قوله تعالى: ﴿لَا قَدَرَنَّ لَهُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شٰكِرِيْنَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

فلما التزم الشيطان هذه الأمور كان عدواً مظاهراً بالعداوة فلهذا وصفه الله تعالى بذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا كالتفصيل لجملته عداوته، وهو مشتمل على أمور ثلاثة:

أولها: ﴿بِالسُّوِّ﴾، وهو متناول جميع المعاصي سواء كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب.

وثانيها: ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وهي نوع من السوء، لأنها أقبح أنواعه، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي.

وثالثها: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وكانه أقبح أنواع الفحشاء، لأنه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر، فصارت هذه الجملة كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في الآية أن الشيطان يدعو إلى الصغائر والكبائر والكفر والجهل بالله^(١)

٣. الجهل.

هو سبب كل بلاء وسبب الغلو بصفة خاصة مع ركوب الهوى، وهو سبب كل مظاهر الغلو في حياتنا.

فالخروج على المسلمين بتكفيرهم وتقتيلهم ونحو ذلك إنما هو راجع إلى الجهل بالضبط الشرعي للأمر، وتشديد النصوص في أمر تكفير المسلم، واستحلال ماله ودمه.

وكذلك الغلو في الأولياء والصالحين بعبادتهم من دون الله إنما يرجع للجهل بما يجب نحوهم من المحبة والافتداء دون اعتقاد قدرتهم على التصرف في الأمور، وغيره من العقائد الفاسدة التي أورثها الجهل بالعقيدة الصحيحة.

وقد بين القرآن الكريم أن هذا الجهل كان هو السبب الأعظم في ضلال من ضل من الأمم السابقة، وفيما وقع فيه من شرك بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨٦/٥.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ مِنَّا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِّنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا أَلَمَتَهُمُ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّشَاءً شُهُودًا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهَدَتِهِمْ وَيُسْتَأْذَنُ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَعْيَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ حِشَّتُكُمْ بِآهَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ [الزخرف: ١٥-٢٥].

«ذكر الله تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد منزعهم، وذلك أنهم جعلوا إلهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلا على أنه يرضى عبادة الأصنام ديننا، وأن ذلك كالأمر به، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويخرصون ويخمنون، وهذا هو الخرص والتخرص.

فَاتَوَّأ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعَتَا هُم فِيهِ وَيَطِلُّنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

«يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فَاتَوَّأ﴾ أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم.

قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعَتَا هُم فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَيَطِلُّنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

فظهر من الآية أن سبب غلو بني إسرائيل في عبادة تلك الأصنام إنما كان بسبب جهلهم عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

٤. التقليد.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٦٧.

المجتمعية والعالمية مثل: محاربة الدين، المحن والابتلاء، انتشار المعاصي والفتن، ترك الحكم بما أنزل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْنَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[البقرة: ١٠٩].

وهذا يكشف لنا مقدار ما يضمّر أعداؤنا لنا من الحسد والحقد والبغض والعداوة؛ ولا شك أن ذلك كله مما يهيج مشاعر الغلاة؛ فيشتطون غضبا ويزدادون في تعنتهم وغلوهم، ويتخذون من تلك العداوة التي تظهر بين الحين والحين في صور شتى أيسرها ما يبدو من أفواههم من البغضاء من فلتات الألسن، وأكثرها ضررا ما يلحقون ببلاد المسلمين من غدر وتخريب وتدمير وقتل وإزهاق لنفوس الأبرياء، ولكن هذا كله لا ينبغي أن يواجهه بأفعال الطيش والحماقة والتهور، وإنما يواجهه بالإعداد الجيد دون

وقرأ جمهور الناس: «على أمة» بضم الهمزة، وهي بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد^(١).

فالجهل وتقليد الآباء هو ما أوقعهم فيما هم فيه من الغلو في نسبة الولد إلى الله، وادعائهم أن الملائكة بنات الله وغير ذلك من صنوف الشرك.

٥. الخوض في المتشابهات.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُفِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾﴾ [آل

عمران: ٧-٩].

فبين ربنا سبحانه أن سبب ضلال هؤلاء إنما جاء من قبل خوضهم في المتشابهة: إما ابتغاء الفتنة، وإما ابتغاء تأويله، وهذا غالب حال أهل الغلو.

ثانياً: أسباب مجتمعية وعالمية:

لعل من الإنصاف أن نقول أيضاً: إن من أسباب الغلو كذلك: العوامل والظروف

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/٥٠.

مظاهر الغلو

للغلو مظاهر عديدة كلها تدل على التشدد والمغالة والتطرف والانحراف عن وسطية الإسلام السمحة؛ فمن ذلك: التكفير، الابتداع في الدين، الاعتداء على الناس وأموالهم، ادعاء العلم والتدين والغلو في المحبة أو الكراهية.

قال سبحانه في آية المائدة: ﴿قُلْ يَتَاهِدِ الْكَاتِبُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال ابن العربي في هذه الآية «نهى الله سبحانه أهل الكتاب عن الغلو في الدين من طريقه: في التوحيد، وفي العمل؛ فغلوهم في التوحيد نسبتهم له الولد سبحانه، وغلوهم في العمل ما ابتدعوه من الرهبانية في التحليل والتحریم والعبادة والتكليف. وقال صلى الله عليه وسلم: (لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه)^(١). وهذا صحيح لا كلام فيه.

استفزاز أو استفزاز للعدو في وقت لا يكون للمسلمين طاقة بمواجهة أولئك الأعداء. لكن أهل الغلو لا ينطلقون إلا من تلك المحاذير - لا يحركهم غيرها: الطيش والحماسة والتهور.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، ١٠٣/٩، رقم ٧٣٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم ٢٦٦٩.

وقد ثبت في الصحاح (أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع امرأة من الليل تصلي، فقال: من هذه؟ قيل: الحولاء بنت تويبة لا تنام الليل كله. فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرفت الكراهية في وجهه، وقال: إن الله لا يمل حتى تملوا، اكلفوا من العمل ما تطيقون^(١)).

فدل ذلك على شمول الغلو للاعتقاد والعمل؛ فغلوهم في الاعتقاد نسبتهم له الولد سبحانه، وغلوهم في العمل ما ابتدئوه من الرهبانية في التحليل والتحريم والعبادة والتكليف.

أولاً: التكفير:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣].

فأخبر سبحانه أن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر، وينكر ما معه من الحق، وهذا من الغلو الذي شابههم فيه أصحاب الفرق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من أحب الدين إلى الله أدومه، ١٧/١، رقم ٤٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته، ٥٤٢/١، رقم ٧٨٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١٤١/٢.

المبتدعة من المسلمين؛ حيث يتبرأ كل فريق من مخالفيه؛ وإن كانوا من أهل الملة يشاركونهم في أصول الدين وقواعده، وهذا من الظلم الواضح البين.

ويتدرج ذلك إلى الغلو في التكفير كما هو حال الخوارج وغيرهم من جماعات التكفير في تكفير عصاة المسلمين وإخراجهم من دائرة الإسلام إلى الكفر.

ثانياً: الابتداع في الدين:

لما كان أهل الغلو هم الذين غالوا فأنحرفوا عن سواء السبيل وقصده، وعن الصراط المستقيم الذي أمروا بلزومه لزمهم بذلك أن يكونوا من أهل البدع في الدين.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع، وليس المراد سبل المعاصي؛ لأن المعاصي من حيث هي معاصٍ لم يضعها أحدٌ طريقاً تسلك دائماً على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات.

ويدل على هذا ما روى إسماعيل عن

هذه الخطوط هلك.

وفي رواية: «يا أبا عبد الرحمن! ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة، وعن يمينه جوادٌ وعن يساره جوادٌ، وعليها رجالٌ يدعون من مر بهم: هلم لك! هلم لك! فمن أخذ منهم في تلك الطرق؛ انتهت به إلى النار، ومن استقام إلى الطريق الأعظم؛ انتهى به إلى الجنة، ثم تلا ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية كلها.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، قال: البدع والشبهات.

وعن عبد الرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنس عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

قال بكر بن العلاء: يريد إن شاء الله حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم خط له خطأ، وذكر الحديث.

فهذا التفسير يدل على شمول الآية لجميع طرق البدع، لا تختص ببدعة دون أخرى.

ومن الآيات قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَقَدْ نَعَمْتُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

سليمان بن حرب، قال: حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطأً طويلاً، وخط لنا سليمان خطأً طويلاً، وخط عن يمينه وعن يساره، فقال: هذا سبيل الله ثم خط لنا خطوطاً عن يمينه ويساره وقال: هذه سبيلٌ وعلى كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني الخطوط **﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾** (١).

قال بكر بن العلاء: «أحسبه أراد شيطاناً من الإنس، وهي البدع، والله أعلم».

وعن عمر بن سلمة الهمداني؛ قال: «كنا جلوساً في حلقة ابن مسعود في المسجد وهو بطحاء قبل أن يحصب، فقال له عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وكان أتى غازياً: ما الصراط المستقيم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو ورب الكعبة الذي ثبت عليه أبوك حتى دخل الجنة.

ثم حلف على ذلك ثلاث أيمانٍ ولأء، ثم خط في البطحاء خطأً بيده، وخط بجنيبه خطوطاً، وقال: ترككم نبيكم صلى الله عليه وسلم على طرفه، وطرفه الآخر في الجنة، فمن ثبت عليه، دخل الجنة، ومن أخذ في

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠٨/٧، رقم ٤١٤٢، والنسائي في الكبرى، ٩٥/١٠، رقم ١١١٠٩.

فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائز عن الحق؛ أي: عادل عنه، وهي طرق البدع والضلالات، أعاذنا الله من سلوكها بفضلها، وكفى بالجائر أن يحذر منه، فالمساق يدل على التحذير والنهي.

وذكر ابن وضاح؛ قال: «سئل عاصم بن بهدلة، وقيل له: أبا بكر! هل رأيت قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]؟ قال: حدثنا أبو وائل عن عبد

الله بن مسعود؛ قال: (خط عبد الله خطأ مستقيماً، وخط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن شماله، فقال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا، فقال للخط المستقيم: هذا سبيل الله، وللخطوط التي عن يمينه وشماله: هذه سبل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه؛ والسبيل مشتركة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ إلى آخرها).

عن التستري: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: طريق السنة، ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾، يعني: إلى النار، وذلك الممل والبدع.

وعن مجاهد: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾؛ أي المقتصد منها بين الغلو والتقصير، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع^(١).

(١) الاعتصام ١/ ٧٦.

وكلام الشاطبي هنا فيما قرره واضح في أن أهل البدع هم أهل الغلو والجور والانحراف عن قصد السبيل، وقد أيد ذلك بما نقله عن الصحابة والتابعين من أهل العلم، قال: «وعن علي رضي الله عنه أنه كان يقرؤها أي ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾: (فمنكم جائز)؛ قالوا: يعني هذه الأمة، فكأن هذه الآية مع الآية قبلها يتواردان على معنى واحد.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسْتَ بِمُفَرِّقٍ فِي شَيْءٍ لَمَّا أَمَرْتَهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَتَّبِعُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

هذه الآية قد جاء تفسيرها في الحديث من طريق عائشة رضي الله عنها، قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ من هم؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هم أصحاب الأهواء، وأصحاب البدع، وأصحاب الضلالة؛ من هذه الأمة، يا عائشة إن لكل ذنب توبة، ما خلا أصحاب الأهواء والبدع، ليس لهم توبة، وأنا بريء منهم وهم مني برآء^(٢)).

قال الشاطبي: «قال ابن عطية: هذه الآية

(٢) نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٢/ ٢٤٥. والحديث ذكره الدارقطني في العلل، ١٦٣/ ٢، وابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، ١/ ١٣٧.

وإذا كانوا كذلك مع الناس جميعاً فإنهم لشططهم وغلوهم تجدهم مع أهل الإسلام أشد غلوا وعداوة، منا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)^(٣).

رابعاً: ادعاء العلم والتدين:

المبتدعة يدعون لأنفسهم علما لدنيا باطنيا يتميزون به عن الأمة؛ وذلك حتى لا يكون لأحد عليهم حجة؛ لأن العلم الظاهر الذي أنزله الله على رسوله وجعل فيه الحجة - لا يشهد لهم في شيء مما هم عليه من الباطل، وهم لا يستجيبون لما جاء به الله ورسوله فيما لا يوافق أهواءهم؛ وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَى رَبِّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

لذا لجئوا - كذبا وزورا منهم وافتراء على الله ورسوله - إلى ادعاء علم مؤداه أن الله تعالى قد اختصهم به دون خلقه جميعا

تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد.

ويريد والله أعلم بأهل التعمق في الفروع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في فصل ذم الرأي من «كتاب العلم» له^(١).

وحاصل الأمر أن المبتدع يغالي فيشق على نفسه ويلزمها ما رفعه الله تعالى عنه من الحرج والتكليف بما فيه مشقة زائدة؛ قال الشاطبي: «وحاصله أن الشارع طالبه برفع الحرج، وهو يطالب نفسه بوضعه وإدخاله على نفسه وتكليفها ما لا يستطيع، مع زيادة الإخلال بكثير من الواجبات والسنن التي هي أولى مما دخل فيه، ومعلوم أن هذه بدعة مذمومة»^(٢).

ثالثاً: الاعتداء على الناس وأموالهم:

فهم يعتدون على جميع الناس، غلوا منهم وتشددا ورغبة في الانتقام منهم، وتعجيل عقوبتهم بدلا من الصبر على دعوتهم والترفق بهم لهدايتهم، وحالهم في ذلك حال من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قَوْلُكَ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر)، ٤/ ١٣٧، رقم ٣٣٤٤.

(١) الاعتصام ١/ ٧٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤١٥.

بما في ذلك أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول أحد محققهم^(١): «لقد فنى الصوفية في حب مولاها وتخلقوا بأخلاقه وتأدبوا بأدابه وتربوا في محاريبه وعاشوا في ذكره ومناجاته فعلمهم وطهرهم وزكاهم واصطفاهم واجتباهم وأحبهم ورضى عنهم ففتح لقلوبهم ملكوت السموات والأرض يريهم عجائب كونه وبدائع قدرته وبدائع قدرته وأسرار خليقته وأفاض عليهم هداياه وعطاياه علوما وأذواقا أو كما يقول الصوفية أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت.

ومن هذا الفناء جاءهم الخلود وبهذا التخلق أصبحوا أئمة يهدون إلى الله بأمره ويقفون حراسا على آياته ومشاهده مبشرين بكلماته متحدئين عن حضراته داعين إلى محبته ومناجاته مترنمين في آفاقه وجدا وشوقا بتسبيحه وذكره.

يقول العلامة الإمام الكلاباذي واصفاً لمقاماتهم وأحوالهم سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى وعزف بنفوسهم عن الدنيا صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة وخلصت عليها معاملاتهم فمتحوا علوم الوراثه وصفت

سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم أنارت أعلامهم فهموا عن الله وساروا إلى الله وأعرضوا عما سوى الله خرقت الحجب أنوارهم وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند ذي العرش أخطارهم وعميت عما دون العرش ابصارهم فهم أجسام روحانيون وفي الأرض سماويون ومع الخلق ربانيون»^(٢).

وهذا الذي ذكرناه قطرة من بحر ما ورد عن الصوفية من ادعاء باطل للعلم لا ينازعون فيه أهل العلم وحدهم؛ بل ينازعون في ذلك رب العرش العظيم في صفة علام الغيوب.

ولا يقصر أهل التشيع عن هذا الغلو الصوفي بل يزيدون عليه ويتجاوزونه بمراحل كبيرة تطفح بها كتبهم المعتمدة لديهم، وليس المجال مجال النقل عنهم في ذلك^(٣).

وكذلك بقية الفرق من الخوارج والمرجئة وغيرهم ممن اختص ببدعة في دين الله تعالى إنما يدعون جهلا واتباعا للهوى علما تميزوا به عن سائر الخلق.

خامساً: الغلو في المحبة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: أصول الكافي ص ١٣٤، ١٥٨-١٥٩.

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي الحنفي ص ٥.

باهلة إلهها من حيس، عام المجاعة»^(١).
ومثل هذا الذي ذكره القاسمي ما يفعله
العامة الذين قصدوا قبور الأولياء من ألوان
الغلو فيهم؛ حيث رجوا منها النفع والضرر،
وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور
وقربوا لها القرابين، وغير ذلك مما دعاهم
إليه مغالاتهم في محبتهم باعتقاد ما لا يجوز
فيهم ووصفهم بما لا يصح إلا لله تعالى؛
فدعاهم هذا الغلو الاعتقادي إلى غلو في
السلوك ينافي ما أمرهم الله تعالى به من
توحيده وعدم الإشراك به.

وفي هذه الآيات بين الله تعالى أن الغلو
في محبة المتبوعين يفضي إلى الاتباع بغير
هدى من الله، وهو يفضي بصاحبه إلى الشرك
بالله؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله
تعالى؛ بله الغلو في محبة المتبوعين أكثر من
محبتة سبحانه، وبين ما يؤول إليه أمرهم في
الآخرة من تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، وما
آل إليه أمرهم من العذاب والحسرات التي
لا تنقضي، والأمنيات الباطلة بأن يعودوا
إلى الدنيا فيتبرئوا من هؤلاء المتبوعين كما
تبرئوا منهم، ثم بين حالهم في الدنيا، وكيف
أنهم كانوا يتركون اتباع ما أنزل الله تعالى
لاتباع ما وجدوا عليه آباءهم بغير دليل ولا
بينة معرضين عن هدي الله تعالى تقليدا
لآبائهم وأوليائهم.

﴿أَمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

«من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا
أي: أمثالا. مع أن الآيات منعت من أن يكون
له ند واحد فضلا عن جماعتها يسوون
بينهم وبين الله إذ يحبونهم كحب الله أي:
يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله
والخضوع له.

والأنداد: إما الأوثان التي اتخذوها آلهة
لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا منها النفع
والضرر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها
النذور وقربوا لها القرابين. وإما رؤساؤهم
الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لا
سيما في الأوامر والنواهي. ورجح هذا،
لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ الرجال أندادا
وأمثالا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم
والانقياد لهم ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد
لله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله من
المشركين لأناداهم، لأن أولئك أشركوا
في المحبة، والمؤمنون أخلصوها كلها لله،
ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه،
ولأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره، بخلاف
المشركين فكانوا يعبدون الصنم زمانا ثم
يرفضونه إلى غيره أو يأكلونه، كما أكلت

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٦١.

علاج الغلو

١. ترك اتباع الهوى والتجرد لطلب الحق.

التجرد في طلب الحق أصل مكين من أصول الهداية، وذلك أن الهوى هو الميل النفسي إلى الشيء؛ فإن وافق الهدى، وإلا هوى بصاحبه.

قال الراغب: «الهوى: ميل النفس إلى الشهوة. وقيل: سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى: سقوط من علو إلى سفل»^(١).

ولذا نهى الله تعالى في كتابه في نصوص كثيرة عن اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا فَوَعَيْنَ بِالْقِسْطِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ نَعِرْضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَنْتَكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] الآيات إلى قوله تعالى: ﴿يَنْدَاؤُكُمْ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فهذا حوار جرى بين نبي الله داود عليه السلام وهذين الخصمين، وعاتبه الله تعالى فيه لميله لأحد الخصمين مأخوذاً بقوة حجته فسارع إلى الحكم له بقوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ دون استماع للخصم الآخر، «والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مشيراً لا يحتمل التأويل.

ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيكِ إِلَىٰ نَعَايِدِهِ وَإِنْ كَثُرَ بَيْنَ الْخَطَاءِ﴾ (أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض) ﴿يَتَّبِعِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾.

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجال: فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم»^(٢).

فيمكن أن يقال: إن الله عد تسرع داود عليه السلام بالحكم دون سماع حجة الآخر من الهوى - وهو وإن كان ميلاً غير مقصود بتأثير عارض سحر بيان الخصم - فإنه مما

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٢٠٨.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٥٤.

«والقيام في قوله: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا﴾ مراد به المعنى المجازي وهو التأهب للعمل والاجتهاد فيه كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

واللام للتعليل، أي لأجل الله ولذاته، أي جاعلين عملكم لله لا لمرضاة صاحب ولا عشيرة، وهذا عكس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

أولاًجل معرفة الله والتدبر في صفاته»^(٢).

٢. ترك التقليد بغير دليل.

ترك التقليد بغير بينة أصل مكين كذلك من أصول الهداية في القرآن الكريم؛ ومن أجل ذلك نعى الله على أولئك الغلاة الذين يتبعون آباءهم أو علماءهم أو أحبارهم ورهبانهم أو سادتهم ورؤساءهم دون هدى من الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿٣٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاءُ الْعَذَابِ وَتَمَطَّتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ

لا يتسامح فيه في حق الأنبياء والمصطفين الأخيار؛ فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين^(١)؛ فحذر الله تعالى نبيه من اتباع الهوى لما يفضي إليه من الضلال عن الحق. وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَٰغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

وترك اتباع الهوى يقتضي الإخلاص والتجرد لله في طلب الحق والانصياع له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفًىٰ وَقُرْدًىٰ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَّا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ يَوْمَ يَدْنَىٰ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

(١) هذا هو ما ندين الله به مما يليق بحق الأنبياء، لا ما ورد في كثير من كتب التفسير من الإسرائيلية أن القصة تعريض نبي الله داود عليه السلام من أنه أراد أن يتزوج بامرأة أوريا فقدمه في الغزو وعرضه للقتل ليتزوج امرأته، فمثل هذا لا يصح به أثر بحمد الله تعالى.

انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٤٢١.

اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا
كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ [لقمان: ٢١].

فبين الله تعالى في هذه الآيات أن الاتباع
بغير هدى من الله يفضي بصاحبه إلى الشرك
بالله؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله
تعالى.

٣. ترك التكلم بغير علم.

من وسائل الهداية كذلك لترك الغلو:
ترك التكلم بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا
أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا
أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ
هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

فالنبي صلى الله عليه وسلم أمره الله
تعالى أن يخبر محاوريه بذلك، ويبين لهم
أنه لا يتكلم بشيء من قبل نفسه بل يتبع ما
يوحى إليه.

قال تعالى: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ
أَتَيْنِي وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِي قُلْ مَا لَكُمْ مِنْ
حَرَمٍ أَمِ الْأَنْثِيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأَنْثِيَيْنِ نِعْمَتِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٢﴾
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا لَكُمْ مِنْ حَرَمٍ أَمِ
الْأَنْثِيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَيْنِ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ

بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ
حَرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَ
أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ
أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِخَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ
بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٥﴾ [الأنعام: ١٤٤-١٤٥].

فعظم سبحانه إثم من يحل أو يحرم من
قبل نفسه فيضل الناس بغير علم، وأمر نبيه
صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه أن
يعلم محاوريه بوقوفه صلى الله عليه وسلم
عند حدود ما أنزل الله إليه فلا يحرم إلا ما
حرم الله تعالى.

ولذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه
وسلم أن يحاج محاوريه بسؤالهم عن دليل
قولهم فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا
مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ
مُتَخَرِّجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٥٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ
لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا
تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِعَايِنَتْنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٠﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٥٠].

٤. ترك الأخذ بمجرد الظن والشك.

قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مَيْثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بَهْتَنًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَلَئِنْ أَخْلَفُوا فِيهِ لَبِئْسَ مَا كَفَرْنَا بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّالِمِينَ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٨].

فنعى الله سبحانه على أهل الكتاب اعتقادهم قتل المسيح وصلبه بمجرد الظن دون بينة يكونون بها على يقين من أمرهم.

وربط تعالى بين اتباع الظن والوقوع في الضلال واتباع الهوى، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١٣١ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝١٣٢ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ۝١٣٣ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ لَيُّسُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ۝١٣٤﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٩].

فبين سبحانه أن ضلال أكثر الناس من الغلاة إنما هو بسبب اتباع الظن، واتباع

الهوى بغير دليل ولا بينة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [يونس: ٣٦].

٥. الالتزام بالكتاب والسنة النبوية.

الالتزام بالكتاب والسنة هما طريق النجاة الأوكد، وسبيله الأوضح فمن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض) (١).

عن العرياض بن سارية، قال: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالةٌ فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ) (٢).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، ١/ ١٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، ٥/ ٤٤، رقم ٢٦٧٦. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فالالتزام بالكتاب والسنة هما سبيل النجاة من الغواية ومن كل غلو وإفراط أو تفريط.

٦. سؤال أهل العلم.

قال تعالى: ﴿فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما شفاء العي السؤال) (١)

وقديما قالوا: «السؤال نصف العلم»؛ فمن ثم وجب على كل من التبس عليه شيء في دين الله تعالى أن يسأل عنه أهل العلم المشهورين العاملين به.

٧. محاورة الغلاة والرد على شبهاتهم.

قال تعالى مقروا مبدأ الحوار والجدال مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال تعالى معلما المؤمنين ما ينصحون به أهل الكتاب في محاورتهم: ﴿قُلْ يَأْهْلَ

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٤٩٩/١، رقم ٢٥٤٩.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيم، ٩٣/١، رقم ٣٣٦.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٨٠٥/٢، رقم ٤٣٦٣.

الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٧].

وإذا كان ذلك مع المخالف من أهل الملل الأخرى فلا شك أنه مع الموافق في الدين والعقيدة أولى وأنجع، وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتناصح والتشاور والتخاطب بالتي هي أحسن؛ فقال عز من قائل: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَكُنَّا عَلَيَّ غَلِيظًا مِنَ الْقَلْبِ لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ولا شك أنه لا بديل للحوار الجاد الذي تصدق فيه النوايا إلا المزيد من التباعد والفرقة؛ وذلك أن الحوار هو المتنافس الطبيعي لإخراج ما تكظمه الصدور، ومن ثم فإن انقطاع الحوار يؤدي حتما إلى الانفجار الرفض لتكميم الأفواه أو صمم الأذان عن الاستماع إلى الآخر ومحاورته وتفهمه، وما تلك الثورات التي عجت بها المنطقة العربية كلها أخيرا إلا نتيجة حتمية لضعف الحوار بين أولي الأمر وطوائف الشعب.

البعض منهم من فراغ يحدو بعضهم إلى زيادة التعمق فيما لا يجب عليه، والبحث عما لم يوجب ربنا علينا علمه من المتشابه، أو الميل إلى المزيد من التعبد بما لم يأت به الشرع، ونحو ذلك مما هو من آفة فراغ العقول.

وعلاج ذلك أن يعلم العبد أهمية الوقت، وأنه قد خلق لأمر عظيم وغاية شريفة، وهي ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩].

ومما يدل على أهمية الوقت كثرة إقسام الله تعالى به في كتابه الكريم؛ ككقسمه تعالى بالفجر، والضحي، والليل، والعصر. والعبادة ليست منحصرة في الصلاة والصيام والزكاة والحج وتلاوة القرآن، بل تشمل سائر الفروض والواجبات التي أمرنا الله تعالى بها.

وجملة القول في ذلك، أن تعلم أن العبادة منهج شامل للحياة كلها، يقتضي أن تكون حياتك كلها وفق منهج الله تعالى، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس وفق ما تهواه نفسك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٢] لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [١٣٣]

[الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

٨. الاعتبار بحال الغلاة والمخالفين للكتاب والسنة ومصيرهم.

ينبغي على أهل العلم أن يلفتوا هؤلاء الغلاة للاعتبار بحال ومآل من سبقهم من الغلاة والمخالفين في الكتاب والسنة؛ فيتأملون ما نزل بأهل الكتاب قبلهم من سخط الله وغضبه بسبب غلوهم، وكيف كان التشديد سببا لتشديد الله عليهم فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في حق بني إسرائيل والبقرة (لو اعترضوا أدنى بقرة لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم) (١).

٩. استثمار الوقت بالعمل الصالح. وذلك أن من أسباب وقوع الغلاة فيما هم فيه من الغلو والتشديد والتنطع ما يعانيه

(١) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف ٦٦/١: «قلت غريب، وأخرجه الطبري في تفسيره موقفاً على ابن عباس... وكذلك أخرجه أيضاً من كلام أبي العالية، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره من كلام عبيدة السلماني، وعزاه ابن كثير في تفسيره لابن مردويه في تفسيره عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبي رافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن بني إسرائيل قالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون ما أعطوه أبداً ولو أنهم اعترضوا... إلى آخره... وروى البزار في مسنده من حديث عباد بن منصور عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن بني إسرائيل لو أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم. انتهى.

والأظهر: وقف الأثر على ابن عباس، رضي الله عنه.

قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَعَلَّى الْعَادِينَ ﴿١١٢﴾
 قَدْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿١١٣﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
 إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٤﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿١١٥﴾

[المؤمنون: ١١٢-١١٦].

فسوف يسأل الله سبحانه عباده لا محالة
 عن أعمارهم وأوقاتهم وما عملوا فيها، ففي
 الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن
 مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما ابن
 آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل عن
 خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما
 أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه،
 وماذا عمل في علمه) ^(١).

فليسأل كل نفسه: ماذا أعد لهذا السؤال؟
 وبماذا سوف يجيب يومئذ وهو موثق
 بالأغلال أمام ذي الجلال، فيومئذ لن ينفعه
 غلوه وتنطعه، ولن ينفعه إلا ما وافق فيه
 هدي الحبيب صلى الله عليه وسلم قال
 تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَهْبَبَ
 إِلَيْنِ﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب يوم القيامة
 والرقائق والورع، باب في القيامة، ٤/٦١٢،
 رقم ٢٤١٦.
 وحسنه الألباني في صحيح الجامع،
 ٢/١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

فما من لحظة من لحظات حياتك إلا
 ولله تعالى عليك فيها أمر أو نهي فالتكليف
 شامل للأوقات كلها وللعمر كله، لا تخلو
 لحظة من لحظات الحياة عن تكليف لله
 تعالى كلفنا به إما على سبيل الوجوب أو
 على سبيل الندب والاستحباب، وإن كنا قد
 صرنا في زمان قد وجبت علينا فيه واجبات
 كثيرة، تكاد تمنع المرء من فعل كثير من
 المستحبات، فضلاً عن أن ينشغل عنها
 بالمباحات أو المكروهات، وأعاذنا الله من
 المحرمات أن تقع فيها ونتلهى بها عما أمرنا
 به من الطاعات وما أحله لنا من المباحات.
 فالعجب كل العجب بعد ذلك لمن
 يبحث عن مزيد من الواجبات لم يوجبه
 الشرع، أو استحباب أمور متكلفة زائدة على
 ما استحبه الشرع الحنيف.

فاعلم يا عبد الله أنك لن تزول قدماك
 يوم القيامة من عند ربك حتى يسألك عما
 عملت في هذه الأوقات.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۖ لَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].
 وقال أيضاً: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ وَقَالْ أَكْذَبْتُمْ
 بَيَاطِيٰٓي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا ۖ أَلَمْ أَذْكَرْكُمۡ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾
 [النمل: ٨٤].

وقال سبحانه في بيان سؤاله المجرمين
 عن مدة لبثهم في الأرض وما عملوا فيها:
 ﴿قَدْ كَمْ لَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَّةَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾

أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء^(٢).

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا كِذًّا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الطغيان، الهداية، الوسطية

(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد^(١)).

١٠. البيئة الصالحة التي ينشر فيها العدل والحق ويؤخذ على يد الظالم.

بعد كل ما سبق، وقبل كل ما سبق تأتي قيمة البيئة الصالحة؛ فلا شك أن من أسباب انتشار الغلو ما يعانيه الغلاة من شعور بالتناقض بين ما ينبغي أن يكون في مجتمعاتهم من معاني الإسلام السامية وبين ما هو واقع فعلاً من مخالفات جسيمة تعم كافة المجالات والمستويات؛ فينشأ لديهم من جراء ذلك ردة فعل عنيفة تدعوهم إلى المبالغة في كل ما فرط فيه أبناء مجتمعاتهم، حتى يؤول أمرهم إلى الغلو والتشدد واعتياد ذلك في كل شيء من قول أو فعل أو اعتقاد. وليس أدل على أهمية عامل البيئة الصالحة وأثرها في تقويم أهلها، ومساعدة الناس على لزوم الجادة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن سبقنا من قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وراح يسأل عن توبة فذله العالم على ضرورة الانتقال إلى بيئة صالحة تعينه على التوبة. (فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً، كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، ١٠٧/٩، وأخرجه موصولاً مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ٣/١٣٤٣، رقم ١٧١٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، ٤/٢١١٨، رقم ٢٧٦٦.